مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 395 -406 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

فواصل الآي في السّياق القرآني –نماذج من كتاب التعبير القرآني للدكتور فاضل السّامرائي-

Verses Breaks in Quranic Context-Quranic Expression Templates by Dr. Fadel al-Samerrai-

* **نسيم عصمان** (ط.د).
Nassim Osmane
جامعة باتنة1.
University of Batna 1 - Algeria
nassimosmane8@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/07	تاريخ القبول:2020/03/19	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

إنّ أغلب الدّراسات التي تناولت الفاصلة القرآنية هي دراسات شكلية، ركّزت في تعليلها انسجام فواصل الآيات على الجانب الصّوتي والإيقاع البلاغي وحده، وهذا وإن كان صحيحًا ومقصودًا في النظم القرآني، إلّا أنّ هناك جانبا آخر لا يقلّ أهمّية عن ذلك، ألا وهو السّياق القرآني، الذي له الأثر البالغ في توجيه هذه الفواصل كما بيّن ذلك الدكتور فاضل السّامرائي.

ومن ثمّ جاءت هذه الدّراسة لتكاشف لنا عن أثر السّياق في توجيه انسجام رؤوس الآيات، وذلك من خلال تحليلنا بعض النماذج التي وردت في كتاب التعبير القرآني للسّامرائي.

الكلمات المفتاحية: الفاصلة القرآنية، السّياق القرآني، الإيقاع البلاغي.

Abstract :

Most of researches addressed the quranic break as formal studies. They focused their explanation about verses breaks compatibility on phonetics and rhetorical rhythem sides themselves, if that true and intended in the quranic system. Furthermore, there is another important side which is the quranic context. It has the big influence in directing these breaks as explaned by Dr. al-Samerrai.

After that, this study came to reveal to us the context influence in directing verses breaks compatibility after analyzing some templates that mentioned in the quranic expression book of al-Samerrai.

Keywords: Quranic break, quranic context, rhethorical rhythem.

* نسيم عصمان. nassimosmane8@gmail.com

توطئة:

من المعلوم أنّ الآيات القرآنية تنتهي بفواصل منسجمة صوتيّا بعضها مع بعض مثل: تعلمون، تؤمنون، تتقون، ومثل: خبيرا، كبيرا، عليما، حكيما.

ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم يُعنى بهذا الانسجام عناية واضحة، لما لذلك من تأثير كبير على السّمع، ووقع مؤثر في النفس، فقد ترى أنّه مرّة يقدّم كلمة، ومرة يؤخّرها انسجاما مع فواصل الآيات، فمثلا يقول مرة: (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧) سورة الشعراء، بتقديم موسى على هارون، فيجعل كلمة هارون نهاية الفاصلة انسجاما مع الفواصل السابقة واللاحقة، ومرة يقول: (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠) سورة طه، بتقديم هارون وجعل موسى نهاية الفاصلة، لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه.

وقد ترى أنّه يحذف شيئا من الكلم لتنسجم مع فواصل الآي؛ إذ لو أبقى المحذوف لم ينسجم، وذلك نحو قوله تعالى: (قال هل يَسمعونكُم إذ تدعُون) (أو يَنفعونكم أو يَضرُّون) سورة الشعراء. إذ الأصل (أو يضرّونكم) مقابل (ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من يضرونكم، إذ لو أبقاه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

وقد يزيد شيئا في الكلمة للغرض نفسه، وذلك نحو قوله تعالى: (وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ٦٧) سورة الأحزاب، فقد مد فتحة (السبيل) لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآي المتقدمة والمتأخرة، ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحا.

غير أنّ الذي نريد أن نؤكّده هنا-كما بيّن السّامرائي-أنّ القرآن الكريم راعى في كلّ ذلك أيضا ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، "فإنّه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعى في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى، فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة (هارون)، وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الصوتي وحده، بل اقتضاه الكلام من جهة أخرى، فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام معا، فلم يجُر موطن على آخر، وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام"[1].

قال السّامرائي: "وقد تظنّ في كلامنا هذا غلوّا ومبالغة دفعنا إليها إحساس ديني وتقديس نُكنّه للقرآن الكريم، وليس نابعا من روح علميّة، ولا من نفس بريئة من العصبيّة والهوى، ولا نريد أن ندفع عن أنفسنا هذه التهمة أو نقرها، وإنّما ندع ذلك للبحث يدفعه أو يقرّه"[2].

وهذا الذي ارتأه السامرائي في قضية الفاصلة القرآنية؛ أعني ارتباطها بالمعنى والسّياق علاوة على الانسجام الموسيقي قد سبقه إليه بعض القدامى ممن عُنوا بالبحث في التفسير وبيانه، فقد جاء عن الإمام الآلوسي –رحمة الله– ما يقطع بصحة ما ذكرناه، قال رحمه الله ردا على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوف رَّحِيم ١٤٣) البقرة ، ولعلّه قدّم الرؤوف وهو أبلغ محافظة على الفواصل،": وقول القاضي بيض الله تعالى غرة أحواله : لعل تقديم (الرؤوف) مع أنّه أبلغ محافظة على الفواصل، ليس بشيء ، لأنّ فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسّجع، فالمراعاة حاصلة على كل حال، ولأنّ الرأفة حيث وردت في القرآن قدّمت، ولو في غير الفواصل، كما في قوله تعالى (رَأفَة وَرَحمَة وَرَهبَانِيَّةً ٱبتَدَعُوهَا) في وسط الآية".[3]

وبناءً على ما سبق فإنّ إشكالية هذا البحث تتمحور حول السّؤال الآتي: هل استطاع السّامرائي في دراسته البيانية أن يبرهن على أهمّية السّياق في توجيه الفاصلة القرآنية؟ هذا ما سنراه في تحليلنا لبعض النماذج التي قدّمها السّامرائي في كتابه التعبير القرآني، ولكن قبل الولوج إلى ذلك نودّ أن نشير إشارة نزيرة إلى مفهوم الفاصلة لغةً واصطلاحًا.

أولا: مفهوم الفاصلة:

1–لغة:

الفاصلةُ من الفعل (فصَلَ) بالتحريك فيه كلّه، والجذر: الفصل، وتدور معاني هذا الجذر اللّغوي حول التمييز، والقطع، والبيان.

قال ابن فارس: "الفاء والصّاد واللّام كلمة صحيحة تدلّ على تمييز الشّيء من الشيء، وإبانته عنه، يقال: فصلتُ الشيءَ فصلًا، والفيصل: الحاكم، والفصيل: ولد الناقة إذا افتصل عن أمّه، والمفصل اللسان؛ لأنّه به تفصل الأمور وتتميّز"[4].

2– اصطلاحا:

وأمّا تعريف الفاصلة في الاصطلاح، فقد تعدّى أن يكون حرفا واحدا متفقا عليه، وغدا لهذه اللفظة في اصطلاحات المؤلفين أكثر من تعريف، يمكنني الآن أن أقف على بعضها –بإيجاز–، وهي كما يلي:

الفواصلُ: "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني" [5]، وهذا تعريف الرماني.

وقيل الفاصلة هي "كلمة آخر الجملة، وينسب هذا القول إلى أبي عمرو الدّاني"[6].

وعرّفها الزركشي بقوله: "هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع"[7].

وهذا الاختلاف في تعريف الفاصلة مردّه إلى اختلاف زوايا النظر إلى الفاصلة، وغرض كلّ باحث من دراستها، فمن نظر إليها من الجانبين النّحوي والصرفي عرفها بأنها كلمة آخر الآية أو آخر الجملة، ومن نظر إلى الجانب الصّوتي عدها مجموعة من المقاطع، والمقاطع هي ما تقابل تعريف الخليل بن أحمد للقافية، وهي: (مجموع آخر ساكنين في البيت، وما بينهما من متحركات إن وجد، والمتحرّك قبل السكن الأول).

والمعتمد من هذه التعاريف هو التعريف الأخير؛ أعني أنّ الفاصلة هي الكلمة الأخيرة التي تختم بها رؤوس الآيات، هذا هو الذي عليه الجمهور.

ثانيا: نماذج من دراسة السّامرائي للفاصلة القرآنية:

*ومن ذلك قوله تعالى: (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحصُوهَا إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ لَظَلُوم كَفَّار ٣٤) سورة ابراهيم.

وقوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُور رَّحِيم ١٨)[8] سورة النحل.

فقد تظنّ أنّه ختم آية إبراهيم بقوله (كَفّار) مراعاةً لفواصل الآي في هذه السورة، وختم آية النحل بـ (رحيم) مراعاةً لفواصل الآي فيها، ولسنا ندفع ذلك، فإنّ خاتمة كلّ من الآيتين تنسجم مع الآيات فيهما، ولكن السّياق أيضا يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل من الآيتين، يقول السّامرائي: "ذلك أنّ الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته، فختم الآية بصفة الإنسان، وأنّ الآية في سورة النّحل في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته"[9].

فقد قال في سورة إبراهيم: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعمَتَ ٱللَّهِ كُفرا وَأَحَلُّواْ قَومَهُم دَارَ ٱلبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصلَونَهَا وَبِئسَ ٱلقَرَارُ ٢٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُل تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُم إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقنَٰهُم سِرّا وَعَلَانِيَة مِّن قَبلِ أَن يَأتِيَ يَوم لَّا بَيع فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١)

وقال في سورة النحل: (وَٱلأَنعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفء وَمَنَٰفِعُ وَمِنهَا تَأكُلُون وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ ٦ وَتَحمِلُ أَثقَالَكُم إِلَىٰ بَلَد لَّم تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوف رَّحِيم ٧ وَٱلخَيلَ وَٱلبِغَالَ وَٱلحَمِيرَ لِتَركَبُوهَا وَزِينَة وَيَخلُقُ مَا لَا تَعلَمُونَ ٨ .)" [10].

فأنت ترى بعد التأمّل في هذه الآيات أنّ آيات إبراهيم كانت في معرض ذكر صفات الإنسان، وآيات النّحل في مساق صفات الله وأفضاله وآلائه على عباده، فجاءت الفاصلة القرآنية في كلّ موضع بحسبه.

وهذا الذي أشار إليه السّامرائي هنا قد سبقه إليه بعض علماء السّلف القدامى.

فقد جاء في معترك الأقران: "إنّما خصّ سورة إبراهيم بوصف المنعَم عليه، وسورة النحل بوصف المنعم، لأنّه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان، وفي سورة النّحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته"[11].

وقال الزركشي في البرهان:" ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم، وآية إبراهيم بوصف المنعَم عليه.

والجواب: أنّ سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذلك وصفه سبحانه[12].

ومن ذلك قوله تعالى: (فَأُلقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدا قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠) سورة طه، وقوله: (فألقي السحرة ساجدين قالوا ءامنا برب العالمين* رب موسى وهارون)[13] سورة الشعراء.

تلاحظ أنّه قدم في طه ذكر هارون، وفي (الشعراء) ذكر موسى، ولعلّ الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة هو أنّ ذلك ما يقتضيه أواخر الآي.

ونقول: صحيح إنّ أواخر الآيات في سورة (طه) تقتضي أن يكون (موسى) في آخر الآية، وفي الشعراء تقتضي أن تكون كلمة (هارون) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديم ما قدّم، وتأخير ما أخر، ولو لم تكن أواخر الآيات كذلك، وانظر إلى الفرق بين القصتين في السورتين كما يقرره السّامرائي[14]:

-إنّ ذكر (هارون) تكرر في سورة (طه) كثيرا، وقد جعله الله شريكا لموسى في تبليغ رسالته، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلا، ومن ذلك قوله تعالى (وَٱجعَل لِّي وَزِيرا مِّن أَهلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشدُد بِهِۦٓ أَزرِي ٣١ وَأَشرِكهُ فِي أَمرِي ٣٢).

- وقوله: (ٱذهَب أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكرِي ٤٢)، فقد أمر كلّا من موسى وهارون بالذهاب بآياته ولم يخصّ موسى بذلك.

-وكان خطاب فرعون لهما معا: (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩) ولم يقل له فمن ربّك؟

-ونسبهما فرعون كليهما إلى السحر فقال: (قَالُوٓاْ إِن هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخرِجَاكُم مِّن أَرضِكُم بِسِحرِهِمَا وَيَذهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلمُثلَىٰ ٦٣).

في حين لم يرد هارون في سورة الشّعراء إلا قليلا وهو قوله:

أ-(فأرسل إلى هَارون).

ب-(فاذهَبا بآياتنا إنّا معكُم مستمعُون).

- وفيما كان الخطاب في آيات طه موجها إلى موسى وهارون معا، كان موجها إلى موسى وحده في الشعراء (قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذتَ إِلَٰهًا غَيرِي لَأَجعَلَنَّكَ مِنَ ٱلمَسجُونِينَ ٢٩).

وقد نسب موسى وحده إلى السّحر، ولم ينسب معه هارون، كما جاء في طه، فقال: (قَالَ ٱلمَلَأُ مِن قَومِ فِرعَونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيم ١٠٩) ولم يرد ذكر لهارون بعد هذا.

قلت: فأنت ترى بعد هذا الذي -قرّره السامرائي-حول الفرق بين سياق القصّتين، أنّ سياق القصة في سورة طه مبني على التثنية، وأنها في سورة الشعراء مبنية على الإفراد، ولذلك قدّم هارون على موسى في طه، وعكس ذلك في الشعراء، كل ذلك مراعاة للمقامين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يذكر السّامرائي أنّه ذكر في آيات طه خوف موسى (فأوجسَ في نفْسِهِ خيفةً مُوسَى)، ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء[15].

فتلحظ بعد هذا البيان أنّه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في الشعراء، ولم تذكر حالة الضّعف البشري الذي اعتراه، فاقتضى كلّ ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين.

وأظنّ بعد هذا الذي قرره السامرائي أنّ القارئ في غنًى عن أن نقول له: لو قيل لك: قدّم وأخر بين الاسمين حسبما يقتضيه السّياق لقدّمت هارون على موسى في طه، وموسى على هارون في الشعراء.

وعلاوةً على هذا كلّه فهناك مناسبة أخرى ذكرها السامرائي –وأظنّها من لدنه–، وهي تدلّ على إعجاز هذا القرآن وسموّ نظمه، وهي: أنّ سورة طه تبدأ بالحرفين الطاء والهاء، وسورة الشعراء تبدأ بـ طسم، فكلتا السورتين تبدأ بالطاء، غير أنّ الحرف الأخير من طه هو الهاء، وهو أول حروف هارون، وليس فيها حرف من حروف موسى، والحرف الأخير من (طسم) هو الميم، وهو أول حرف من حروف (موسى) وليس فيها حرف من حروف هارون[16].

فانظر يا رعاك الله، أسرار التنزيل، أفلا يزيد حسنا على حسن تقديم هارون على موسى في طه، وتقديم موسى على هارون في الشعراء، فللّه درّ التنزيل ما أروعه!.

وتأمل الموافقة للسّياق، والموافقة بين البدء والختام، أفلا يدلّ هذا على إعجاز القرآن، وصدق ربّنا إذا قال: (قُل لَّئِنِ ٱجتَمَعَتِ ٱلإِنسُ وَٱلجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأتُواْ بِمِثلِ هَٰذَا ٱلقُرءَانِ لَا يَأتُونَ بِمِثلِهِۦ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعض ظَهِيرا ٨٨). .

* ومن بديع الفاصلة قوله تعالى (فإذا جَاء أمرُ الله قُضي بالحقّ وخسرَ هُنَالك المبطلونَ) سورة غافر، وقوله أيضا في السورة نفسها (وخَسر هُنالكَ الكافرُونَ)[17] سورة غافر.

فقد ختم الآية الأولى بقوله (المبطلون)، وختم الآية الثانية بقوله (الكافرون)، وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه، يقول السامرائي" فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل، والثانية في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر"[18].

قال تعالى في الآية الأولى:(فَإِذَا جَاءَ أَمرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلمبطِلُونَ ٧٨) وقال في الثانية (فَلَمَّا رَأَواْ بَأسَنَا قَالُواْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحدَهُۥ وَكَفَرنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشرِكِينَ ٨٤ فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم إِيمَٰنُهُم لَمَّا رَأَواْ بَأسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَد خَلَت فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلكَٰفِرُونَ ٨٥).

ومناسبة الفاصلة للسياق واضحة في الآيتين كما ذكر السّامرائي، مما أغنى عن ذكر الشرح والتفصيل.

وهذا الذي أشار إليه السامرائي هنا قد أشار إليه أيضا الكرماني في كتابه البرهان في اختيار هاتين الفاصلتين: "أن الأول متصل بقوله (قضي بالحق) ونقيض الحق الباطل، والثاني متصل بإيمان غير مجد، ونقيض الإيمان الكفر"[19].

* ومن ذلك قوله تعالى (لَا جَرَمَ أَنَّهُم فِي ٱلأَخِرَةِ هُمُ ٱلأَخسَرُونَ ٢٢) سورة هود، وقوله تعالى: (لَا جَرَمَ أَنَّهُم فِي ٱلأَخِرَةِ هُمُ ٱلخَٰسِرُونَ ١٠٩)[20]سورة النحل.

لماذا ختم آية هود بقوله: (الأخسرون) وهو اسم تفضيل، وفي النحل بقوله: (الخاسرون) وهو اسم فاعل؟ لأنّ المتقرر أنّ اسم التفضيل يدلّ على أنّ أحد الطرفين قد حظي بزيادة على الآخر في الوصف، وإن كان الطرفان جميعا قد اشتركا في أصل المعنى (الوصف).

إذا تقرّر هذا فإنّ الفريق المذكور من الكفّار في سورة النحل أشدّ خسارة وهلاكا من الفريق المذكور في سورة هود، ومن ثمّ نتساءل عن سر الاختلاف بين الفاصلتين؟

وجوابا عن ذلك يقول السامرائي:" سرّ هذا الاختلاف أنّ آية هود فيمن صدّوا عن سبيل الله وصدّوا غيرهم فضوعف لهم العذاب، وآية النّحل فيمن صدّوا ولم يصدّوا غيرهم، فكان الأولون أخسر من الآخرين، فجيء لهم باسم التفضيل[21].

قال تعالى في سورة هود: (ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبغُونَهَا عِوَجا وَهُم بِٱلأخِرَةِ هُم كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰئِكَ لَم يَكُونُواْ مُعجِزِينَ فِي ٱلأَرضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن أَولِيَاءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلعَذَابُ مَا كَانُواْ يَستَطِيعُونَ ٱلسَّمعَ وَمَا كَانُواْ يُبصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُواْ يَفتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُم فِي ٱلأخِرَةِ هُمُ ٱلأَخسَرُونَ ٢٢)

وقال في النحل (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱستَحَبُّواْ ٱلحَيَوٰةَ ٱلدُّنيَا عَلَى ٱلأخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهدِي ٱلقَومَ ٱلكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وَسَمعِهِم وَأَبصَٰرِهِم وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُم فِي ٱلأخِرَةِ هُمُ ٱلخَٰسِرُونَ ١٠٩).

جاء في البرهان للكرماني:" إنّ قوله في هود (هم الأخسرون)، لأنّ هؤلاء صدّوا عن السبيل وصدّوا غيرهم، فضلّوا وأضلّوا، فهم الأخسرون يضاعف لهم العذاب، وفي النحل صدّوا فهم الخاسرون"[22].

نخلص ممّا ذكره السّامرائي والكرماني أنّ الفاصلة القرآنية جاءت مناسبة للسّياق الذي وردت فيه.

وهذا الاختلاف في الفاصلة بين السورتين؛ أعني التغيير في التعبير من اسم الفاعل إلى اسم التفضيل للمناسبة في السياق، يتضح لنا منه أنّ الكافرين ليسوا على درجة واحدة في الخسارة والعذاب، بل هم متفاوتون في ذلك بحسب درجة كفرهم وصدهم وإعراضهم عن الله، ولا شك أنّ الذين ضلّوا وأضلّوا غيرهم أشدّ ضلالة من الذين ضلّوا في أنفسهم، لأنّهم يحملون وزرهم ووزر غيرهم، كما قال تعالى:(ليَحملُوا أوزارهم كاملةً يومَ القيامة ومن أوزَار الذينَ يُضلونهُم....).

وقد قال عليه الصلاة والسلام: (ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا).

وإذا كان الأمر كذلك –وهو كذلك–، فمن المحال أن يستوي عذاب هؤلاء وعذاب أولئك، ولذلك جاءت الفاصلة مبينة عن ذلك في كلّ مقام بحسبه، ومبينة كذلك عن عدل الله عزّ وجلّ بين عباده، وأنّ كلّ واحد منهم يعذّبه بقدر عمله، كما قال تعالى: (جَزاءً وفاقاً).

لطيفة: هناك لفتة طيّبة في الآية الكريمة لم يشر إليها السامرائي، وهي: المناسبة في الدّلالة بين قوله تعالى: (يُضَاعفُ لهم العذابُ) وبين قوله: (الأخسَرُونَ)، وهو اسم التفضيل، الذي يدلّ على مضاعفة الخسارة كما بيّنا.

* ومن الأمثلة التي بحثها السامرائي في هذا الباب قوله تعالى:

(ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡم وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١) سورة الانعام.

وقوله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡم وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧) سورة هود.

فقد ختم آية الأنعام بقوله (وأهلها غافلون)، وختم آية هود بقوله:(وأهلها مصلحون)، ذلك لأنّ سياق الكلام في الأنعام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ[23].

قال تعالى (يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡم وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١)

قال السّامرائي تعليقا على الآية" فأنت ترى أنّ سياق الكلام في ذكر الرسائل والإنذار والتبليغ، وتبيان أنّ الله لم يهلك أقواما غافلين لم ينذروا ولم يكلفوا، فإن من لم ينذر فهو غافل، قال تعالى (لِتُنذِرَ قَوما مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُم فَهُم غَٰفِلُونَ ٦)".[24]

قلت: ولذلك ما كان الله ليهلك أمّةً من الأمم دون أن يبلغهم حجة الله على عباده وهي بعثة الرسل، فلذلك ناسب أن يختم الآية بقوله: (وهم غافلون)؛ أي: غافلون عن شرع الله وتبليغه، لأنّه ليس من حكمة الرب تبارك وتعالى أن يعذّب أقواما غافلين دون أن ينذرهم أو يعذرهم، كقال سبحانه:(وما كنّا مُعذبينَ حتى نبعثَ رسولاً)، فللّه الحجة البالغة على عباده.

وأمّا آية هود فهي في "الكلام على الإصلاح والنّهي عن الفساد في الأرض، ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى (فَلَولَا كَانَ مِنَ ٱلقُرُونِ مِن قَبلِكُم أُوْلُواْ بَقِيَّة يَنهَونَ عَنِ ٱلفَسَادِ فِي ٱلأَرضِ إِلَّا قَلِيلا مِّمَّن أَنجَينَا مِنهُم وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُترِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ ٱلقُرَىٰ بِظُلم وَأَهلُهَا مُصلِحُونَ ١١٧)".[25]

فناسب ختام كلّ آية السياق الذي هي فيه.

جاء في درّة التنزيل في هاتين الآيتين" للسائل أن يسأل فيقول لما قال في الأولى(غافلون) وفي الثانية (مصلحون)؟

والجواب: إنّ ذلك إشارة إلى ما تقدّم من العقاب في قوله: (قَالَ ٱلنَّارُ مَثوَىٰكُم خَٰلِدِينَ فِيهَا) ، وبعدها: (يَٰمَعشَرَ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ أَلَم يَأتِكُم رُسُل مِّنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُم لِقَاءَ يَومِكُم هَٰذَا) يعني العقاب في يوم القيامة، لأنّه لم يكن ربّك ليفعله من قبل أن يحتج عليهم برسل يهدونهم وينذروهم ما وراءهم من محذورهم، ولا يتركونهم في غفلة من أمورهم، فاقتضى هذا المكان أن يقال لهم: لم يؤخذوا وهم غافلون، بل كانوا منبّهين بالأعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأمّا الموضوع الثاني الذي ذكر فيه: (وأهلها مصلحون) فللبناء على ما تقدّم وهو قوله تعالى: (فَلَولَا كَانَ مِنَ ٱلقُرُونِ مِن قَبلِكُم أُوْلُواْ بَقِيَّة يَنهَونَ عَنِ ٱلفَسَادِ فِي ٱلأَرضِ إِلَّا قَلِيلا مِّمَّن أَنجَينَا مِنهُم وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُترِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجرِمِينَ ١١٦)، وكان نقيض الفساد في الأرض الإصلاح فقال: لم يكن الله ليهلكهم وهم مصلحون، فاقتضى ما تقدّم في كلّ آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين"[26].

والأمثلة في هذا الباب كثيرة جدّا، ولذلك أكتفي بهذا القدر ، ولمزيد من الأمثلة فإنّي أحيل القارئ على كتاب السّامرائي –التعبير القرآني–، فإنّه من أنفس ما ألّف في هذا الباب، وسيجد القارئ فيه ضالّته المنشودة، ليس في هذه القضية فقط، بل في عديد من القضايا البيانية التي تدلّ على إعجاز القرآن وسموّ نظمه.

خاتمة:

لقد تبيّن ممّا سبق أنّ القرآن الكريم لا يُعنى بالفاصلة على حسب أواخر الآيات وجرسها فحسب، بل أيضا على حساب المعنى ومقتضى الحال والسياق، بل مراعًى فيها إلى جانب ذلك كلّه عموم التعبير القرآن وخواصه، بحيث تدرك أنّه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهها بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه، وجمع بين ذلك كله ونسّقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنّك تحسّ أنّها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفنّ والصياغة والجمال، فما أجلّه من كلام وما أعظمه من تعبير!

هذا ويمكن أن أجمل أهم النقاط التي تتمخض عن هذا البحث في ثلاثة عناصر:

- الانسجام الحاصل بين فواصل الآيات مراعًى فيه الجانب الصوتي، والسياق القرآني معا، وليس الجانب الموسيقي وحده.
- الفاصلة القرآنية تعدّ وجهًا من أوجه الإعجاز البياني، الذي هو مناط التحدّي في القرآن الكريم.
- القول بوجود المناسبة في القرآن الكريم هو القول الصحيح المعوّل عليه؛ ونعني بالمناسبة أنّ كلّ كلمة قد حسب لها حسابها، بل كلّ حرف، بل كلّ حركة كما يقول السّامرائي.

وقد رأينا المناسبة واضحةً جليّةً في الفاصلة القرآنية، وقل مثل ذلك في التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتشبيه والاستعارة...

هوامش:

(1) فاضل السّامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، الأردن، ط6، 2009، ص 222.

(2) المصدر نفسه، ص222.

(3) شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، (دت)، ج2، ص7.

(4)أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979، ج4، ص505.

(5) الرماني، والخطابي، والجرجاني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول، دار المعارف القاهرة، ط4، 1991، ص97.

(6) شفيع السّيد، أساليب البديع في البلاغة، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2005، ص39

(7) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (دت)، ج1، ص53.

(8) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص224.

(9) المصدر نفسه، ص ص224 225.

(10) المصدر نفسه، ص225.

(11) جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: محمد علي البجاوي، دار الثقافة العربية، (دت) ج1، ص 44.

(12) البرهان ج1، ص 86.

(13) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص 226.

(14) ينظر المصدر نفسه، ص ص 226 227.

(15) ينظر المصدر نفسه، ص228.

(16) المصدر نفسه، ص228.

(17) المصدر نفسه، ص229.

(18) المصدر نفسه، ص229.

(19) محمود بن حمزة بن نصر الكرماني: البرهان في توجيه متشابه القرآن، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص169.

(20) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص235.

(21) المصدر نفسه، ص 235.

(22) الكرماني، البرهان، ص96.

(23) فاضل السامرائي ، التعبير القرآني ص 238.

(24) المصدر نفسه، ص238.

(25) المصدر نفسه ص 238.

(26) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1973، ص131..